الباب الأول

أوضاع الموالى فى ظل العباسيين .. وفيه فصلان

الفصل الأول

التعريف بالمولى والفرق بينه وبين المصطلحات الأخرى

كلمة مولى تُطلق ويُراد بها عدة معانى فى اللغة العربية ، وتتعدد هذه المعانى على حسب سياق الكلمة ووروودها فى الجمل المختلفة .

فيطلق مولى على الرب والمالك كما فى قوله تعالى ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾(١) .

كما يُطلق على القريب من العصبة كالعم وابن العم(٢) ، والعصبة كلهم ومنه قوله تعالى ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾(٣) ، والعرب تسمى بنى العم الموالى ، قال شاعرهم :

مهلاً بنى عمنا مهلاً موالينا لا تنبشوا بيننا ماكان مدفونا(٤)

كما يُطلق على الناصر كما فى قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾(٥) .

كما يُطلق على الابن بالتبنى مولى ونرى ذلك واضحاً فى قوله تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾(٦) .

كما يُطلق أيضاً على السيد ومنه قول الرسول ﷺ بشأن النهى عن تسمية السيد بالرب قوله « ليقل (أى العبد) حينما يخاطب سيده سيدى مولاى »(٧) .

كما يُطلق اللفظ أيضاً على العبد المعتوق ، ونرى هذا المعنى واضحاً فى

---

(١) سورة الأنعام : ٦٢ .
(٢) المعجم الوجيز ص٦٨٢ .
(٣) سورة مريم : ٥ .
(٤) القرطبي ـ تفسير القرطبي ٦/ ٤١١٧ .
(٥) سورة محمد : ١١ .
(٦) سورة الأحزاب : ٥ .
(٧) البخاري ـ فتح الباري ٥/ ١١١ .

قـول الرسول ﷺ « مولى القـوم من أنفسهم »[١] ..

وتُطلق أيضـاً كلـمة مـولى عـلى الحليف والصـاحب والجار والشـريـك إلى غيـر ذلك من الإطلاقات التى تـدل على سعة اللغـة فى إستيعابها لكـل الألفـاظ اللغوية .

أمـا فى الإصطلاح والشـرع الإسلامى فإننـا نجـد للمـولى معنيـين :

الأول : المعتـوق ويسـمى مـولى العتـاقة .

الثانى : الحليف ويسمى مـولى المـوالاة .

فمـولى العتـاقـة هـو رقيـق أعتقـه سـيده فيـصـير منسـوباً إلى المعتـق بالـولاء والطـاعة ، ويسمى هـذا ولاء النعمـة . أمـا مولى الموالاة فهـو رجـل ينتمى لآخـر عن طـريق المخـالطـة أو بالخـدمة أو المخـالفة فينسب إليـه أو ينتمى إلى قبـيلة من القـبـائل أو بطـن من البطـون فينسـب إليهـا ، وقـد أقـرّ الإسـلام هـذا النـوع من الـولاء فـقـال ﷺ : « مـولى القـوم منهـم بالحلف حـيث يأتـى الرجـل للآخـر ويقول لـه أنت مولاى ترثنى إذا مت » .

وكتب عمـر إلى بعض عـماله الموالى ثلاثة : مولى رحـم ومولى عـتـاقه ومولى عقـد ، فمولى الرحـم يرث ويورث ومولى العـتاقة يورث ولا يرث ومولى العقـد لا يرث ولا يورث وميراثه لعصبته[٢] .

ولكن المفـهوم المتـعارف عليـه لدى البـاحثـين لكلمـة مولى هـم المسلـمون من غـير العـرب[٣] .

وهؤلاء إمـا أن يكونوا أصلهم أسـرى حـرب اسـترقوا ثم أعـتـقـوا بعـد ذلك فصـاروا موالى ، وإمـا أن يكونوا من أهـل البـلاء المفتـوحة وهؤلاء كانوا حـينمـا يدخلون فى الإسـلام ينضمـون إلى العـرب ويدخلون فى خـدمـتهم ويتـحالفـون معـهـم فيعـتزوا بشوكتـهم وقوتهم ويصـبحوا من أنصـار الإسـلام وأتبـاعه الذين يعـملون على نشـر مـبـادئه وتعـاليـمـه فى أرجـاء الأرض ، وهؤلاء هـم مـحـور البحـث وحجـر زوايـاه .

أولاً - الفرق بين الموالى وأهل الذمة :

عـرفنـا فيـما سـبق ذكـره أن من معـانى كلمـة مولى هـم الأقـارب وبنـو العـم الذين يلونهم فى النسـب ، وهناك مصطلحات أخـرى أطلقهـا الفقهاء على طبقـة

---

(١) أخرجه الإمـام البخاري في صحيحـه كتاب الفرائض باب مولى الـقـوم من أنفسهم وابن الأخت منـهم ٨/ ١٩٣ .

(٢) ابن عبد ربـه ـ العقـد الفـريد ٣/ ٤١٠ .

(٣) الطيب النجـار ـ المـوالي في العصـر الأموي ص١٤ .

معينة من طبقات المجتمع الإسلامي وهم أهل الكتاب الذين أدركهم الإسلام واستظلوا بظله الوارف ونعموا بسماحته ولكنهم لم يدخلوا فيه وإنما ظلوا متمسكين بما هم عليه من الديانة فبقى اليهود على يهوديتهم والنصارى على نصرانيتهم .

والذمة تعنى فى اللغة العهد والميثاق والأمان ورجل ذمى أى له عهد ، والذمى هو المعاهد الذى أعطى عهد أمان لماله وعرضه ودينه(١) .

وقد أطلق هذا المصطلح على غير المسلمين الذين عاشوا فى ظل الإسلام ولم يؤمنوا به وسموا أهل الذمة لأنهم دفعوا الجزية إلى المسلمين فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم وأصبحوا فى ذمة المسلمين(٢) .

كما سموا بالمعاهدين لأنهم أعطوا العهود من المسلمين مع إقرارهم بالولاء والطاعة لهم ، قال تعالى ﴿ يا أَيُّها الَّذين آمنوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾(٣) .

وسموا أيضاً بالمستأمنين لأنهم أعطوا الأمان ، والأمان هو التزام الكف عن التعرض لهم بالقتل أو السبى لأن الأمان يحرم القتل عملاً بقوله تعالى ﴿ وإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكين اسْتَجارك فأَجِرْهُ حتَّىٰ يسْمع كلام اللَّه ثُمَّ أَبْلِغْهُ مأْمنهُ ذلك بأَنَّهم قَوْمٌ لاَّ يعْلَمُون ﴾(٤) .

ومن المسميات التى أطلقت على غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى تسمية القرآن لهم بأهل الكتاب تمييزاً لهم عن غيرهم من عبدة الأوثان والأصنام ، قال تعالى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكتاب لم تكْفُرُون بآيَات اللَّه واللَّهُ شهيدٌ علىٰ ما تعْملُون . قُلْ يَا أَهْلَ الْكتاب لم تصُدُّون عن سبيلِ اللَّه منْ آمن تبْغُونها عوجًا وأَنتُمْ شُهداءُ وما اللَّه بغافلٍ عمَّا تعْملُون ﴾(٥) .

والمراد بأهل الكتاب عند الفقهاء اليهود والنصارى(٦) .

ويلحق بأهل الكتاب المجوس(٧) لقول الرسول ﷺ « سنوا لهم سنَّة

---

(١) إبراهيم أنيس ـ المعجم الوسيط ١/ ٣١٥ والزبيدي / تاج العروس من جواهر القاموس ٨/ ٣٠١

(٢) السرخسي ـ شرح السيد الكبير ١/ ١٨ .

(٣) سورة المائدة آية : ١ (٤) سورة التوبة آية : ٦ .

(٥) سورة آل عمران آية : ٩٨ ، ٩٩ . (٦) الإمام الشافعي ـ الأم ٤/ ٢٤٥ .

(٧) المجوس ـ نحلة من النحل ـ كانت تدين بها الفرس ومن دان بدينهم . والمجوس هم القائلون بأصلين ـ النور والظلمة ـ (الشهرستاني / الملل والنحل ٢/ ١٦) .

أهـل الكتاب غـير ناكحى نسائهم ولا آكلى ذبائحهم »[١] .

كمـا يلحـق بأهـل الذمـة الصـابئة[٢] .

وأهـل الذمـة وإن كـانوا من العجـم مثـل المـوالى إلا أنهـم يختلفون عنهـم فى الديانة ، فـالمـوالى بدخـولهم الإسـلام صـاروا مـسلميـن لهـم ما للمـسلمـين من حقوق وعليهم مـا على المسلمين من واجبـات .

ثانياً ـ الموالى فى عصر الرسول ﷺ :

دعـا الإسلام منـذ بزوغ فجـره الوضـاء إلى القـيـم والفضـائل التى تؤلف بين القلوب وتجـمـع القـوى الإنـسانيـة على أسـاس من الحـريـة والعـدل والمسـاواة ، ونظـم الإسلام العلاقات بين الناس وجعل أساسها التعاون على البـر والتقوى .

فـالإسـلام دين الله الذى من أجـله أرسـل الرسل وأنـزل الكتب ، دين يمـتـاز بالشـموليـة والوسطيـة وينظـم بأسـسـه القـويمـة وقواعـده الراسـخـة العلاقـات الإنسـانيـة بـين النـاس مـهـمـا اخـتـلـفت ألوانهـم وأجناسـهم وأديـانهم ، وهـذه القـواعـد والأسس تتلخـص فى المحـافظة علـى الكـرامـة الإنـسـانيـة والـعـدالة الاجتماعية بكـل صورها والتعاون العـام والمـودة والرحمـة بالإنسانية والسعى إلى التعمـير فى الأرض ودفـع الفسـاد عنهـا .

فالعالم بمـا يجد فيـه وما يترتب علـيـه من تطـور اجتماعى واقـتصادى وفكـرى عـام فى علمـه سبحانه ، وإنـه لهـذا وضـع الخطوط الثابتة والمبادىء العـامة والقواعد الشـاملة التى لا تخـرج أطـوار الإنـسـان فى النهـاية عن حدودهـا وترك التطبـيقـات لتطـور الزمـان وبـروز الحاجات فى حـدود مبـادئه العـامة وقواعـده الشـاملة[٣] .

فهـذا الشمـول فى طبيعـة النظـرة الإسلاميـة للكـون والحيـاة والإنسان هـو فى الحقيقة عـدالة إنسانية شـاملة لكـل جوانب الحيـاة الإنسانية ومقوماتها .

وفى عـهـد رسـول الله ﷺ كان الإسـلام سراجـاً منـيـراً يضىء للنـاس كل مسـالك الحيـاة وفـجاجهـا وطبقت كـل هـذه المبادىء فى عهـد الرسول ﷺ

---

(١) البيهـقي ـ سـنن البيهقي ٩/ ١٨٩ .

(٢) هـم قوم من عبـدة الكواكب والنجـوم وهـم قلـة كانوا يعيشـون في حـران بين النهـرين ودينهـم مزيجاً غريبـاً من التوحيد والخـرافة وتعظيـم للكواكب .

(٣) سـيد قطب ـ العـدالة الإجتماعية في الإسـلام ص١٧ .

وأصبحت واقعاً عملياً فى حياة المسلمين ، وقضى الإسلام على التفاوت والتفاضل بين الناس إلا بالتقوى والعمل الصالح فقال سبحانه وتعالى ﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وأُنثَىٰ وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أَكْرَمَكُمْ عند اللَّه أَتْقَاكُمْ إنَّ اللَّه عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١) .

فلا مكان فى الإسلام للتفاخر والتعالى والتنابذ بل المكان للتعارف والتآلف والتماسك والاعتصام .

ويذكر المؤرخون أن رسول الله ﷺ كان له مولى يدعى سفينة وكان فى الأصل عبداً للسيدة أم سلمة فأعتقته وشرطت عليه أن يخدم رسول الله ﷺ فبقى مع آل البيت أليفاً سعيداً بحسن المعاملة له ، واسمه أبو عبد الرحمن ولكن الرسول ﷺ سماه سفينة بسبب أنه حمل متاع الرسول والصحابة معه وكانوا فى سفر فقال له النبى ﷺ يداعبه « احمل ما أنت إلا سفينة »(٢) .

ومن موالى رسول الله ﷺ أبو رافع وأم أيمن وكانت تسمى بركة ، وثوبان وأبو ضميرة وغيرهم(٣) .

وفى ظل المساواة المطلقة بين بنى الإنسان قام رسول الله ﷺ بتزويج مولاه زيد بن حارثة من ابنة عمته (زينب بنت جحش) سليلة العز والشرف ، وحينما آخى محمد ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى أول الهجرة كان عمه حمزة ومولاه زيد أخوين وكان أبو بكر وخارجه ابن زيد أخوين وأبو رويحة الخثعمى وبلال بن رباح أخوين ، بل أن رسول الله ﷺ تعقب كل مظان التفاوت والتفاضل إلا بالتقوى والعمل الصالح فى كل صورها وملابساتها وأسبابها ليقضى عليها جميعاً ، ولهذا بعث بزيد مولاه قائداً لغزوة مؤتة(٤) ثم بابنه أسامة بن زيد قائداً لغزو الروم فى جيش يضم كثرة من كبار المهاجرين والأنصار ، ثم يستأذن الخليفة من أسامة قائد الجيش فى أن يظل معه فيقول له : (إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل)(٥) .

فالإسلام جاء ليقرر وحدة الجنس البشرى فى المنشأ والمصير فى المحيا والممات فى الحقوق والواجبات ولا كرامة إلا بالفضائل ومكارم الأخلاق(٦) .

---

(١) سورة الحجرات آية : ١٣ .
(٢) ابن كثير ـ البداية والنهاية ٨/ ٣٢٢ .
(٣) ابن قتيبة ـ المعارف ص٦٥ .
(٤) مؤتة ـ بالضم والهمزة .. قرية من قرى البلقاء في حدود الشام (ياقوت الحموي ـ معجم البلدان ٥/ ٢٢٠) .
(٥) اليعقوبي ـ تاريخ اليعقوبي ٢/ ٨٦ .
(٦) سيد قطب ـ العدالة الاجتماعية في الإسلام ص٥٢

وفى ظل العدالة والمساواة الإسلامية المطلقة اعتز العربى والعجمى فاعتز بلال بن رباح وسلمان الفارسى وصهيب الرومى بنسبهم إلى الإسلام ، وقد صرح النبى ﷺ بالمساواة المطلقة أمام الأحكام الشرعية فقال ﷺ « كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى »[1] وأخذ الصحابة عن رسول الله ﷺ هذا المنهج القويم وطبقوا هذا النوع من العدالة المطلقة أكمل تطبيق فكان سيدنا عمر يقول (القوى منكم ضعيف حتى آخذ الحق منه والضعيف قوى حتى آخذ الحق له) ، كما كان يقول فى حق سيدنا بلال بن رباح (أبو بكر سيدنا أعتق سيدنا) .

ولما فتح المسلمون البلاد الإسلامية ومنها العراق والشام ودخل الناس فى دين الله أفواجاً سوى الصحابة بين المسلمين فى المعاملة والعطاء وبين العرب وغيرهم من العجم الذين أسلموا وأنابوا وكانوا يسمون الموالى ونظروا إلى الجميع بالرضا وعدم الإساءة أو الاحتقار .

ثالثاً. الموالى فى عهد الخلفاء الراشدين :

ونرى هذه العدالة والمساواة فى أروع صورها فى المنهج القويم الذى سلكه الخلفاء الراشدون بعد رسول الله ﷺ ، فقد اتسمت سياسة الصديق بالعدالة والمساواة ، فكان يقسم العطاء بين المسلمين بالعدل والإنصاف فلا حيف ولاإجحاف . وتتجلى هذه العدالة والمساواة فى خلافة الصديق من خلال منهجه الذى أعلن عنه أول خطبة له إذ يقول ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه خيراً : (إنى وليت عليكم ولست بخيركم فإن استقمت فاتبعونى وإن زغت فقومونى إلى أن قال وإن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ له الحق وإن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ منه الحق)[2] . كما كان عادلاً بين مواليه الذين منهم بلال بن رباح وعامر بن فهيرة وأبو نافع مولى عبد الرحمن بن أبي بكر[3] .

فلما تولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه سار على المنهج القويم والشريعة الغراء حتى صار مضرب الأمثال فى العدل والمساواة ، فإذا ذكر العدل ذكر معه عمر رضي الله عنه حتى قيل لا يوجد اعدل من عمر ، ولست أعدل من عمر رضي الله عنه ولهذا صارت بسيرته الركبان يحكيها الزمان للزمان . .

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده ٥/٤١١ .
(٢) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص٦٧ ، واليعقوبي ـ تاريخ اليعقوبي ٢/ ٨٦ .
(٣) ابن قتيبة ـ المعارف ص٧٧ .

فعندما شرع فى تقسيم العطاء جعل التفاضل فيه حسب الأسبقية والجهاد فى الإسلام ، فليس من آمن بالإسلام وصدق الرسول مات وسارع إلى التضحية والجهاد كمن حاربه وكذبه وقعد عن نصرة الحق وقال : لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه(١) .

فيذكر المؤرخون ـ أن عمر بن الخطاب لما فتح العراق والشام وقف خطيباً بعد أن جمع أصحاب رسول الله ﷺ فقال : إنى قد رأيت أن أفرض العطاء لأهله ، فقالوا : نعم ما رأيت الرأى يا أمير المؤمنين ، قال : فبمن أبدأ ؟ قالوا : بنفسك ، قال : لا ولكنى أضع نفسى حيث وضعها الله وأبدأ بآل رسول الله ﷺ ثم المهاجرين الأولين ثم أنا وبأصحابى الذين أخرجوا من مكة من ديارهم وأموالهم ، ثم بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، ثم قال فمن أسرع إلى الهجرة أسرع به العطاء ، ومن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء فلا يلومن رجل إلا مناخ راحلته(٢) .

واقتضت عدالة الفاروق أن يسوى فى العطاء بين العرب والموالى الذين أسلموا وحسن إسلامهم ، فأعطى للعربى أربعمائة وللمولى أربعمائة ، كذلك فسوى بينهم فى العطاء كما كان يسوى بينهم فى الأقضية(٣) .

فسيدنا عمر لم يفرق بين العرب والموالى فى العطاء ولا فى المعاملة إلا على أساس التقوى والصلاح والاخلاص وكثرة البلاء فى الإسلام ولم يفرق بين عربى ومولى فكلاهما مسلم والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله . ومادام أن الإسلام قد سوى بين الجميع فلا فرق بين غنى وفقير ولا بين عربى وعجمى ولا بين لون ولون إنما التفاضل بالقيام بالفضائل الإنسانية والأعمال الصالحة النافعة للفرد والجماعة ، وقد قرر الإسلام مبدأ الإخاء فى قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ اخْوَةٌ ﴾ ومن هنا أقسم عمر رضي الله عنه بالله الذى لا إله إلا هو ماأحد إلا وله فى هذا المال حق أعطيه أو مُنعه وما أحد إلا عبد مملوك وماأنا فيه كأحدكم ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله ﷺ « فالرجل وتلاده فى الإسلام والرجل وقدمه فى الإسلام والرجل

---

(١) أبو يوسف ـ الخراج ص٤٣ .

(٢) أبو عبيدة الاموال ص٢٨٥ ، والبلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٣٥ .

(٣) أبو يوسف ـ الخراج ص٤٤ .

وغناه فى الإسلام والرجل وحاجته فى الإسلام ، والله لإن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء [١] حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه[٢] .

وكان يقول : والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة ، فإن من قصر به عمله لم يسرع به نسبه[٣] .

فكان الموالى والعربى فى عهده سواء بل كان يفضل أصحاب الكفاءة ويرشحهم للولاية والأعمال الإدارية الهامة فى الدولة الإسلامية دون النظر إلى جنسهم أو أصولهم ماداموا مسلمين ، فكان يقول « لو كان سالم مولى حذيفة حياً لوليته »[٤] ، كما أسند ولاية الكوفة إلى عمار بن ياسر وهو أحد الموالى .

وحدث فى عهد الخليفة عمر أن وقف ببابه سهيل بن عمر وابن الحارث وأبو سفيان بن حرب وجماعة من كبراء قريش فيأذن عمر لصهيب وبلال قبلهما وهما موليان فقيران ولكنهما من أهل بدر ومن السابقين من الصحابة فتورم أنف أبى سفيان من الغضب لهذا التقديم وينطلق لسانه يدعو بدعوى الجاهلية ويقول (لم أر كاليوم قط يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه) .

ويمر عمر بن الخطاب يوما فيرى مشهداً فى مكة يغضبه ، يرى الخدم وقوفاً لا يأكلون مع سادتهم فيغضب ويقول لسيادتهم مستنكراً (ما لقوم يستأثرون على خدامهم ؟ ثم يدعو الخدم للأكل مع السادة فى جفنة واحدة)[٥] .

كان عمر ﷺ لا يفرق فى عدله بين أمير وسوقه ولا بين والٍ ورعية ولابين سيد ومولى فالكل أمام العدالة الإسلامية سواء ، وكان يقول إن الناس لا يزالون مستقيمين ما استقامت لهم أئمتهم وهداتهم وأن الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله فإذا رتع رتعوا[٦] .

وخطب رجل من الموالى إلى رجل من قريش أخته وأعطاها مالاً جزيلاً

---

(١) صنعاء / منسوبة إلى جودة الصنعة وتطلق على موضعين .. الأول : صنعاء اليمن وأحسن بلادها ، والثاني : صنعاء قرية في الغوطة من دمشق كثيرة الفواكه والمياه (ياقوت الحموي / معجم البلدان ٣/ ٤٢٦) .

(٢) أبو يوسف ـ الخراج ص٤٦ . (٣) ابن سعد ـ الطبقات الكبرى ٣/ ٢١٣ .

(٤) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٢٠٠ .

(٥) سيد قطب ـ العدالة الاجتماعية في الإسلام ص١٨٢ .

(٦) هيكل ـ الفاروق عمر ٢/ ١٦٧ ، السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص١٢٩ ، وابن الجزري ـ مناقب عمر ص١١٣ .

فأبى القرشي تزويجها إيَّاه ، فلما بلغ ذلك عمر قال للقرشي : ما منعك أن تزوجه فإن له صلاحاً وقد أحسن عطية ؟ أختك ، فقال القرشي : يا أمير المؤمنين إن لنا حسبا وإنه ليس لها بكفء ، فقال عمر : لقد جاء بحسب الدنيا والآخرة ، أما حسب الدنيا فالمال وأما حسب الآخرة فالتقوى .. زوج الرجل إن كانت المرأة راضية فراجعها أخوها فرضيت فزوجها منه .

وفي ظل هذه الروح السمحة التي تفيض بالحب والمودة بين المسلمين نرى سيدنا بلال بن رباح يتوسط لأبي رويحة الخثعمي في الزواج من قوم من اليمن ، فيذهب إليهم وبيده رويحة فيقول لهم : هذا أخي رويحة وهو امرؤ سوء في الخلق والدين فإن شئتم أن تزوجوه فعلتم وإن شئتم أن تدعوه فدعوا ، فأكرموه من أجل بلال وقبلوه .

ويذكر البلاذري : أن قوماً قدموا على عامل لعمر بن الخطاب فأعطى العرب منهم وترك الموالي فكتب إليه عمر .. أما بعد فيحسب المرء من الشران يحقر أخاه المسلم والسلام(١) .

فكان التفاوت والتفاضل بين الناس في عهد عمر رضي الله عنه أساسه التقوى والعمل الصالح فلا يجعل الوضيع الجبان وإن كان عربياً مثل الشريف الشجاع وإن كان أعجمياً .

أما في عهد عثمان فقد طبقت العدالة أكمل تطبيق ودعا إلى ضرورة تحقيق العدل بين الأفراد . حتى الموالي فقد كان شديد العطف عليهم في مواليه كيسان أبو فروة وابنه عبد الله بن أبي فروة(٢) .

وفي عهد الإمام عليّ رضي الله عنه شدد في تطبيق قاعدة العدالة بين الأفراد ومنع المحاباة للحسيب أو النسيب أو لصاحب الجاه أو السلطان ، ولعل الشدة العاتية التي مرت بها الدولة الإسلامية في عصر عثمان بن عفان تركت آثاراً بالغة في نفوس المسلمين لأخذ الحيطة والحذر في إيصال الحقوق إلى أصحابها والقضاء على بقايا العصبة إن وجدت والتحري في كل ما دق وجل من الأمور .

وروى المدائني أن طائفة من أصحاب عليّ بن أبي طالب مشوا إليه فقالوا : يا أمير المؤمنين اعط هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف من العرب

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ص٤٤٣ والأموال لأبي عبيد ص٣٠٠ .

(٢) ابن قتيبة ـ المعارف ص٨٧ .

وقريش على الموالى والعجم واستمل من تخاف خلافه من الناس . فقال لهم : « أتأمروننى أن أطلب النصر بالجور » ، وإنما قالوا ذلك لأن معاوية كان يصنع فى المال(١) .

فكان علىّ ﷺ لا يفضل شريفاً على مشروف ولا عربياً على عجمى ولايصانع الرؤساء وأمراء القبائل فكان هذا من أقوى الأسباب فى تقاعد العرب عنه .. ولهذا علا شأن الموالى فى عهده عندما سوى بينهم وبين العرب فى المعاملة والعطاء .

ويذكر البلاذرى - أن الموالى قد أخلصوا لعلىّ بن أبى طالب قبل أن يقدم مصرهم وينقل حاضرته إلى الكوفة(٢) فحافظوا على بيت مال البصرة حتى يقدم علىّ إليهم وأبوا أن يسلموه إلى طلحة والزبير عندما قدما إلى البصرة لقتال علىّ بن أبى طالب(٣) .

وصفوة القول أن هذه الفترة كان المجال فيها مفتوحاً أمام الموالى ليبلغوا أقصى مراتب المجد فى كل اتجاه ، فسيدنا عبد الله بن عباس يذكر ويذكر معه مولاه عكرمة وعبد الله بن عمر ومعه مولاه نافع وأنس بن مالك ومعه مولاه ابن سيرين وأبو هريرة ومعه مولاه عبد الرحمن بن هرمز .

رابعاً- الموالى فى عصر الدولة الأموية :

رأينا فيما سبق كيف كانت تسير سياسة الخلفاء الراشدين ﷺ فى اتجاه صحيح وفق شريعة الإسلام السمحة التى أذابت الفوارق بين العرب والعجم وأماتت العصبية الجاهلية والعنصرية وأقامت مبادىء العدالة والمساواة بين المسلمين جميعاً ﴿ كلكم لآدم وآدم من تراب ﴾ .

ولكن سرعان ما تغيرت معالم هذه السياسة الراشدة فى ظل بنى أمية الذين حكموا العصبية العربية وعولوا عليها فى تصرفاتهم ففرقوا بين العرب المسلمين والموالى ، فكانوا يقدمون العرب على غيرهم فى القيادة والولاية وشئون الحكم والسياسة ، ومن ثم أصبح الموالى فى عصر بنى أمية فى منزلة أدنى من العرب بسبب تعصب بنى أمية لبنى جنسهم من العرب ، وأصبحت سياستهم

---

(١) أحمد أمين - ضحى الإسلام ١/ ٢٤ .

(٢) هو المصر المشهور بأرض بابل بالعراق ، وسميت بذلك لاجتماع الناس بها .

(٣) فتوح البلدان ص٤٦٥ .

مع الموالى هى سياسة القوى مع الضعيف ومنطلق الغالب مع المغلوب[١] .

والشواهد التاريخية والحضارية تدل على ذلك دلالة واضحة على نوعية المعاملة التى شرع فيها بنو أمية مع مواليهم .

فلقد روى عن معاوية بن أبى سفيان : أنه دعا الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب فقال إنى رأيت هذه الحمراء[٢] قد كثرت وأراها قد قطعت على السلف وكأنى أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان ، فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق فما ترون ؟ فقال الأحنف بن قيس : أرى أن نفسى لا تطيب أخى لأمى وخالى ومولاى وقد شاركناهم وشاركونا فى النسب . وأطرق فقال سمرة بن جندب : اجعلها إلىّ أيها الأمير فأنا أتولى ذلك منهم وأبلغ منه ، فقال قوموا حتى أنظر فى هذا الأمر ، قال الأحنف : فقمنا عنه وأنا خائف وأتيت أهلى حزيناً ، فلما كان بالغداة أرسل إلىّ فعلمت أنه أخذ برأيى وترك رأى سمرة[٣] .

وفى هذا إشارة واضحة تبين ماكانت تنطوى عليه نفوس بعض الأمويين من أنفة واستعلاء على الموالى بحيث جعلوهم فى منزلة أدنى من العرب ، وعولوا على إضعاف نفوذهم لتظل للعرب الهيمنة عليهم ، والقرائن التى تشير إلى هذا النوع من المعاملة كثيرة ، سواء كانت فى المعاملة أو فى العطاء وهو ما يقدر لهم من الفىء أو الغنائم .

ومن ذلك ما رواه الأصفهانى عن حكاية رجل من الموالى خطب بنتاً من أعراب بنى سليم وتزوجها فركب محمد بن بشير الخارجى إلى المدينة ووالياها يومئذ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، فشكا إليه فأرسل الوالى إلى المولى ففرق بين المولى وزوجته وضربه مائتى سوط وحلق رأسه ولحيته وجاجبيه ، فقال محمد بن بشير :

قضيت بسنة وحكمت عدلاً ولم ترث الحكومة من بعيد

إلى أن قال :

---

(١) محمد الطيب النجار ـ الموالي في العصر الأموي ص٦٢ .

(٢) الحمراء هنا المراد بهم الموالي العجم من الفرس والروم وكانوا يسمونهم العجم أو الأعاجم كما سموا أيضاً بالحمراء (البلاذري ـ فتوح البلدان ص١٣٠) .

(٣) محمد الطيب النجار ـ الموالي في العصر الأموي ص٦٣ .

وفى المائتين للمولى نكال وفى سلب الحواجب والخدود
إذا كافأتهم ببنات كسرى فهل يجد الموالى من مزيد
فأى الحق أنصف للموالى من أصهار العبيد إلى العبيد[١]

وهو إضعاف لشأن الموالى والحط من منزلتهم حتى أنهم شعروا بهذا الفارق فى المعاملة ، ولكنهم كانوا من الضعف بحيث لم يتمكنوا من الإفصاح بمكنون أنفسهم ، فهم يطربون طرباً شديداً لمن يمدحهم ويظهر محاسنهم ويعترف بفضلهم وحسن بلائهم فى الإسلام . فعندما مدحهم جرير بن الخطفى بيت قال فيه :

فيجمعنا والغر أولاد سادة أب لا يُبالى بعده من تغدرا

اجتمعوا حوله يسلمون عليه ويهشون له وانبسطت أسارير وجوههم ثم أهدوا له مائة ألف حلة[٢] .

كما أنهم يأنفون ويغضبون ممن يذمهم أو ينتقص من شأنهم أو يحاول هجائهم ، ولهذا غضبوا من بعض الشعراء الذى ذمَّ بنى العنبر لأنهم رفضوا ضيافته ، فانصرف عنهم وهو يقول :

يامالك بن طريف إن بيعكم رفد القرى مفسد للدين والحسب
قالوا نبيعكه بيعاً فقلت لهم بيعوا الموالى واستحيوا من العرب

فأنفوا من هذا البيت لأنه وضع فيه من شأنهم ورأى أن الإساءة إليهم غير محسوبة عيباً[٣] .

ولقد دفعت العصبية العربية ببنى أمية إلى وضع الموالى فى منزلة أقل منهم حتى فى أحلك الظروف التى يحتاجون فيها إلى الموالى وهى أوقات الحرب والقتال ، إذ كان العرب يمتطون الخيل ثم يكونون فى مؤخرة الصفوف ، بينما يقاتل الموالى راجلين وهم فى مقدمة الصفوف ، ولهذا قال المختار لإبراهيم بن الأشتر يوم خازر: (إنَّ عامة جندك هؤلاء الحمراء - ويقصد الموالى - وإن الحرب إن ضرستهم هربوا فاحمل العرب على متون الخيل وارجل الحمراء أمامهم)[٤] .

(١) الأصفهاني - الأغاني ١٤/ ٢١٧ ، أحمد أمين ضحى الإسلام ١/ ٢٥ .
(٢) المصدر السابق ٧/ ١٢٥ .
(٣) المبرد - الكامل ١/ ٢٧٣ .
(٤) المصدر السابق ٢/ ١٩ .

مما جعل الموالى يكرهون بنى أمية ويتمنون زوال دولتهم ، فعندما قام المختار ابن أبى عبيد الثقفى يطالب بالثأر ممن قتلوا الإمام الحسين بن علىّ سارع الموالى بالإنضمام إليه ، وقد صرح بذلك الدينورى بقوله : (وكان أكثر من استجاب له همدان وقوم كثير من العجم الذين كانوا بالكوفة وكانوا يسمون الحراء وكان منهم بالكوفة زهاء عشرين ألف رجل) .

وكان سبب انضمام كثير من الموالى إلى صفوف المختار بن أبى عبيد الثقفى كراهيتهم لسياسة الأمويين نحوهم والتى أحسوا معها أنهم فئة منبوذة لهذا سارعوا بالإنضمام إلى الحركات المناوئة للدولة الأموية وآذروا المختار فى حركته وكافأهم المختار على نصرتهم له ووقوفهم معه بكل ما أوتوا من قوة أن جعل لهم فى الفىء نصيباً معلوماً ، وقد أغضب فعله هذا العرب وسخطوا عليه وراحوا يلومونه على عطائه للموالى ، فيذكر الطبرى قولهم : « وأخذوا يقولون والله لقد تآمر علينا هذا الرجل بغير رضا منا ، ولقد أدنى موالينا فحملهم على الدواب وأعطاهم وأطعمهم فيئنا ولقد عضتنا عبيدنا فحرب بذلك أيتامنا وأراملنا فاتعدوا منزل شبث بن ربعى وقالوا نجتمع فى منزل شيخنا وكان شيث جاهلياً إسلامياً فاجتمعوا فأتوا كمنزله فصلى بأصحابه ثم تذاكروا هذا النحو من الحديث قال : ولم يكن فيما أحدث المختار عليهم شىء هو أعظم من أن جعل للموالى الفىء نصيباً ، فقال لهم شبث دعونى حتى ألقاه فذهب فلقيه فلم يدع شيئاً مما أنكره أصحابه إلا وقد ذاكره إياه فأخذ لا يذكر خصلة إلا قال له المختار أرضيهم فى هذه الخصلة وآتى كل شىء أحبوا فذكر الموالى فقال عمدت إلى موالينا وهم فىء أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعاً فأعتقنا رقابهم نأمل الأجر فى ذلك والثواب والشكر فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم وشركاءنا فى فيئنا فقال له المختار إن أنا تركت لكم مواليكم وجعلت فيئكم فيكم أتقاتلون معى بنى أمية وابن الزبير وتعطون علىّ الوفاء بذلك عهد الله وميثاقه فلم يرجع إلى المختار »[١] .

كان الموالى قد تنفسوا الصعداء فى ظل حركة المختار الثقفى وأحسوا بقيمتهم الاجتماعية وسط أنماط المجتمع الإسلامى ، ولكن لم تطل هذه الفترة فسرعان ما احتدم الصراع والنزاع بين العرب بزعامة مصعب ابن الزبير الذى

(١) تاريخ الرسل والملوك ٦/ ٤٤ .

كان والياً على البصرة وبين الموالى بزعامة المختار من أجل السيطرة على العراق ، وقد تمكن مصعب من الاستحواذ على المختار والقضاء عليه ومن ثم القضاء على كثير من الموالى أتباع المختار(١) .

وما إن تولى عبد الملك بن مروان أمر الخلافة حتى عاد الموالى إلى المعاناة والاضطهاد من قبل الحجاج بن يوسف الثقفى أحد أركان الدولة الأموية ، ويذكر ابن عبد ربه أن عبد الملك استعمل مولى له يقال له نباته فى حمل الرسائل إلى واليه على العراق الحجاج بن يوسف(٢) .

وفى عهد عبد الملك بن مروان تم تعريب الدواوين فى كل الأقاليم التابعة للدولة الأموية مما أدى إلى إقصاء الموالى وبعدهم عن هذه الوظائف الكتابية ، مع أن جلة الموظفين بالدواوين كانوا من العجم سواء كانوا من الموالى كصالح ابن عبد الرحمن مولى بنى تميم أو كانوا من أهل الذمة كسرجون بن منصور الرومى كاتب الخراج فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، فلما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الأمر إلى ملكا وانتقل القوم من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة ومن سذاجة الأمية إلى حذق الكتابة وظهر العرب ومواليهم أمر عبد الملك سليمان ابن سعد أن ينقل ديوان الشام إلى العربية فنقله ، كما أمر الحجاج كاتبه صالح ابن عبد الرحمن بنقل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية(٣) .

وزاد الموالى ضعفاً فى ظل سياسة الحجاج بن يوسف الثقفى الذى أمر ألا يؤم بالكوفة إلا عربى ، وكان شديد العصبية للعرب مخلصى الولاء للأمويين .

أما فى عهد عمر بن عبد العزيز نعم الموالى بالعدل والإنصاف الذى ساد فى عصره وأحس الموالى بروح الإسلام السمحة والتى طالما افتقدوها فى ظل بعض خلفاء بنى أمية وولاتهم ووجدوها فى ظل هذا الخليفة العادل ، ولهذا أسرعوا إليه بالشكوى من سوء معاملة الولاة معهم ومنعهم من العطاء وتفضيل العرب عليهم(٤) .

وقد أشار الطبرى إلى أن الموالى شكوا إلى عمر بن عبد العزيز ظلم الولاة

---

(١) المصدر السابق ٦/ ١١٧ .
(٢) ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ٤/ ١٨ .
(٣) ابن خلدون ـ المقدمة ص١٧١ ، والبلاذري ـ فتوح البلدان ص٢٩٨ .
(٤) ابن كثير ـ البداية والنهاية ٩/ ٢٠٤ .

لهم وقالوا: يا أمير المؤمنين عشرون ألفاً من الموالى يغزون بلا عطل ولا رزق ومثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج وأميرنا عصبى جاف يقوم على منبرنا فيقول أتيتكم حفياً وأنا اليوم عصبى والله لرجل من قومى أحب إلى من مائة غيرهم وبلغ من جفائه أن كم درعه يبلغ نصف درعه وهو بعد سيف من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان ، فقال: عمر إذن مثلك فليوفد[١] .

كما أمر الخليفة عمر - رضي الله عنه - ولاته بإعفاء الموالى من الجزية إذا دخلوا الإسلام ، وقد حاول الخليفة هشام بن عبد الملك أن يسلك طريقاً وسطاً فى سياسته وأن يجمع بين العناصر المختلفة ويؤلف بينها ولاسيما بين العرب والموالى فردّ على حيان النبطى قائد الموالى مبلغ مائة ألف درهم كانت قد أخذت منه ، كما أنه زاد فى عطاء الموالى حتى وصل إلى ثلاثين درهماً وكان فى عهد معاوية خمسة عشر درهماً[٢] .

والواضح من سياسة الأمويين أنهم كانوا لا يمنحون الموالى من العطاء مثل إخوانهم العرب وذلك بسبب النزعة العربية التى سيطرت على بنى أمية وأنهم كانوا يعطون ويمنعون على حسب الأهواء والأغراض حتى ليروى أن الخليفة هشام بن عبد الملك لما خرج عليه زيد بن علىّ عاقب أهل الحرمين فمنع عنهم العطاء سنة ، فلما جاء الوليد بن يزيد كتب إليهم يطمئنهم فقال :

ألا أيها الركب المخبون أبلغوا ... إسلامى سكان البلاد فاسمعوا
وقولوا أتاكم أشبه الناس سنة ... بوالده فاستبشروا وتوقعوا
سيوشك الحاق بكم وزيادة ... واعطية تأتى تباعاً فتشفع
ضمنت لكم أن لم ترعنى منيتى ... بأن سماء الضر عنكم ستقلع[٣]

ويرى بعض الباحثين أن سياسة الأمويين فى العطاء كانت سياسة مضطربة يمليها عليهم ذلك الجو المحيط بهم ، فتارة يرون الحكمة هى اغداق العطاء على المعارضين من العرب لتأليف قلوبهم كما فعل الأمويون مع الحسن والحسين ابنى

---

(١) الطبري - تاريخ الرسل والملوك ٦/ ٥٥٩ ، وابن عبد الحكم / سير عمر بن عبد العزيز ص ٤٥ .
(٢) ابن عبد ربه - العقد الفريد ٢/ ٢٢٨ .
(٣) الأصفهاني - الأغاني ٦/ ١١٥ .

علىّ وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب وغيرهم ، وتارة يرون أن الحكمة هى فى منع العطاء عنهم لردعهم كما فعل هشام والوليد بن يزيد مع أهل الحرمين أما الموالى فلم يكن لهم فى العطاء نصيب أو كان لهم النزر اليسير(١) .

بينما يرى البعض الآخر أن الحكم الأموى لم يكن حكماً إسلامياً يسوى فيه بين الناس ويكافأ فيه الرعية على السواء ، إنما كان الحكم حكماً عربياً والحكام فيه خدمة للعرب على حساب غيرهم ، كانت تسود العرب فيه نزعة الجاهلية لا النزعة الإسلامية ، فكان الحق والباطل يختلفان باختلاف من صدر عنه العمل ، فالعمل حق إذا صدر عن عربى من قبيلة وهو باطل إذا صدر عن مولى أو عربى من قبيلة أخرى(٢) .

والجدير بالملاحظة أن نظرة بنى أمية المستعلية إلى الموالى بهذه الصورة التى أشرنا إليها آنفاً لم تكن سائدة فى كل أوساط المجتمع ، بل كانت سائدة بين البدو والولاه ، أما نظرة العدل والمساواة في المعاملة والحقوق فقد كانت سائدة فى الأوساط العلمية والدينية . فالعالم يسود بعلمه وأدبه سواء كان مولى أو عربياً بل أن أغلب سادة التابعين كانوا موالى والناس منحوهم من الإجلال والتوقير مثل العرب لا تفاضل بينهم إلا بالدين والعلم ، والأمثلة التى تدل على هذا كثيرة .. فنجد الزهرى ومسروق بن الأجدع وشريحاً وسعيد بن المسيب وقتادة .. كل هؤلاء من سادة التابعين وهم عرب . كما نجد الحسن البصرى ومحمد بن سيرين وسعيد بن جبير وعطاء بن يسار وربيعة الرأى وابن جريج منه سادة التابعين وهم موالى والناس كانوا يأخذون العلم عنهم جميعاً ويفتونهم فيفتوهم . ولما قتل الحسن البصرى تبع الناس كلهم جنازته حتى لم يبق بالمسجد من يصلى العصر ، ولما قتل سعيد ابن جبير على يد الحجاج بن يوسف استنكر الناس جميعاً عمله القبيح ودعوا عليه بالهلاك مع أنه كان يقتل بالآلاف من المسلمين(٣) .

ويشير الأصفهانى إلى بعض سمات العرب فى معاملتهم للموالى قبل مجىء الدولة العباسية فيقول : (كانت العرب إلى أن جاءت الدولة العباسية إذا قبل العربى من السوق ومعه شىء فرأى مولى دفعه إليه ليحمله عنه فلا

---

(١) الطيب النجار ـ الموالي في العصر الأموي ص٦٥ .

(٢) أحمد أمين ـ ضحى الإسلام ١/ ٢٨ .

(٣) ابن كثير ـ البداية والنهاية ٩/ ١٠١ ، أحمد أمين ـ ضحى الإسلام ١/ ٢٨ .

يمتنع ولا السلطان يغير عليه ، وكان إذا لقيه راكباً وأراد أن ينزل فعل وإذا رغب أحد فى تزوج مولاه خطبها إلى مولاها دون أبيها أو جدها)[1] .

ولهذا أنكر العامة على بنى أمية هذه العصبية والتفرقة العنصرية التى أرهقوا بها الموالى بعد أن سوى الإسلام بين الجميع فقال شاعرهم :

أصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم ... مولى الغريب فخذ بفضلك فافخر

مولاك أكرم من تميم كلها ... أهل الفعال ومن قريش المشعر

فارجع إلى مولاك غير مدافع ... سبحان مولاك الاجل الأكبر

كما أصبح حرمان الموالى من الوظائف الرسمية فى الدولة الإسلامية خلال تلك الفترة مثل حرمانهم من العطاء سواء بسواء ، حيث كانت الوظائف الكبيرة مقصورة على العرب دون غيرهم إلا فى القليل النادر .

والحق أن العصبية العربية التى وجدت عند بنى أمية وصبغتهم بطابع الإباء والشمم والاستعلاء على الموالى نتج عنها كراهية الموالى لبنى أمية كراهية تمنوا معها زوال دولتهم وانهيارها بسبب ما لحق بهم من ظلم ، فسعوا فى الخفاء إلى إسقاطها وانضموا إلى كل حركة مناوئة ضد الأمويين كما رأينا إنضمامهم إلى دعوة المختار الثقفى وإلى حركة عبد الرحمن بن محمد الأشعث ، مما يدل دلالة واضحة لا غموض فيها ولا التواء على كراهية الموالى لحكم بنى أمية .

ومن هنا افتخر بعض الموالى على العرب بحضارتهم الزاهرة وتاريخهم التالد وتعصبوا للبدان والموطن وسرت بينهم روح العصبية للأمة الفارسية التى كانت أسبق الأمم حضارة وتقدماً ، ويبدو لنا ذلك واضحاً فى شعر إسماعيل بن يسار الذى كان يتغنى بمجد الفرس وتاريخهم ، فقد دخل إسماعيل على هشام بن عبد الملك فى خلافته وهو بالرصافة جالس على بركة له فى قصره فأنشده قصيدة يفخر فيها بالعجم فقال :

ياربع رامة بالعلياء من ريم ... هل ترجعن إذا حييت تسليمى

حتى انتهى إلى قوله :

إنى وجدك ما عودى بذى خور ... عند الحفاظ ولا حوضى بمهدوم

أصلى كريم ومجدى لا يقاس به ... ولى لسان كحد السيف مسموم

---

(١) الأصفهاني ـ الأغاني ١٧/ ٨٧ .

أحمى بـه مجـد أقـوام ذوى حسـب ... من كـل قـرم بتـاج الملك معمـوم
جحـاجح سـادة بلـج مرازبـة ... جـرد عتـاق مسـاميح مطاعيـم
من كسـرى وسـابور الجنـود معـاً ... والهرمـزان لفخـر أو لتعظيـم
أسـد الكتائب يـوم الروع أن زحفـوا ... وهـم أذلـوا ملوك التـرك والـروم

فغضب هشام وقال أعلىّ تفتخر وإياى تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك غطوه فى الماء فغطوه فى البركة حتى كادت نفسه تخرج ثم أمر بإخراجه وهو يشرُّ ونفاه من وقته إلى الحجاز ، وكان إسماعيل هذا مبتلى بالعصبية للعجم والفخر بهم ولهذا عاش مطروداً[١] .

خامساً. أسباب تعصب العرب ضد الموالى :

والسؤال الذى يطرح نفسه ويتبادر إلى الذهن هو .. ماهى الأسباب والدواعى التى جعلت بنى أمية يتعصبون ضد الموالى ويحتقروهم ؟

والحق أن الآراء مختلفة ومشتتة فى الأسباب الحقيقية لتعصب العرب على الموالى خلال تلك الفترة ، فيرى البعض أنها رجعت إلى مقتل الخليفة عمر ابن الخطاب على يد أبى لؤلؤة المجوسى وطعن معه رهط آخرون ، ولما سمع عمر أن قاتله نصرانياً قال الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل سجد لله سجدة واحدة[٢] .

ولاشك أن هذا الحادث أثار عصبية العرب ضد العجم سواء من أسلم منهم أو من بقى على دينه ، ويرى البعض الآخر أن من أهم أسباب تعصب العرب على الموالى فى ذلك الوقت أنهم كانوا يرون من بعضهم خروجاً على المبادىء الإسلامية ، فبعض الموالى ظلوا مخلصين فى قرارة نفوسهم لمعتقداتهم الدينية القديمة وقبلوا الإسلام ظاهرياً فقط .

بينما يرى أحد المستشرقين أن العرب لم يكونوا يحترمون سوى مهنة الحرب ولذا اعتبروا الموالى طائفة أقل شأناً من العرب وتقترب من طائفة الرقيق ، وهو رأى بعيد عن الصواب بكل المقاييس الصحيحة وذلك لأن الحرب ليست مهنة تمتهن ، فالحرب فى نظر الإسلام سواء كانت دفاعية أو

---

(١) الأصفهاني ـ الأغاني ٤/ ٤٢٥ .
(٢) الطبري ـ تاريخ الرسل والملوك ٤/ ١٩٠ .

حرب من أجل نشر الإسلام جهاد فى سبيل الله عز وجل والجهاد فريضة دينية وليس مهنة حرفية ، هذا من ناحية .. ومن ناحية أخرى فإن الحقائق التاريخية تؤكد على مشاركة الموالى للمسلمين فى حركة الفتوحات الإسلامية وأن دورهم القتالى لا يقل أهمية عن دور العرب ، فضلاً عن تفوقه فلا علة إذن لاحتقارهم أو جعلهم أقل شأناً من العرب مادامو يتحملون معهم أعباء الحرب والقتال .

ويذهب الخربوطلى إلى القول بأن العرب كانوا يرون فى الموالى نزعات قومية تميل إلى القضاء على السيادة العربية إلى جانب ذلك شعر العرب فى قرارة أنفسهم أن معظم الموالى لم يعتنقوا الإسلام عن اقناع بمبادئه القويمة وإنما دخلوه لمصالح شخصية ذاتية كالتظاهر بالإسلام للفرار من دفع الجزية أو الوصول إلى وظيفة سامية ومنزلة عالية .

والرأى عندى أن بعض الموالى وليس معظمهم لم يدخل الإسلام إيماناً بمبادئه وعدالته وإنما دخله طمعاً فى مغنم أو فراراً من مغرم أو خوفاً من سلطانه ، وهذه الفئة القليلة من الفرس أو الموالى صدها الأمويون صداً عنيفاً وعاقبوهم على كيدهم للإسلام أشد عقاب بعد أن أشعلوا فى نفوسهم العصبية العربية التى جعلت العرب يميل بعضهم إلى بعض خلال تلك الفترة بصورة واضحة ، وهذه الفرقة من الموالى كانت مطموسة المعالم ولم تتمكن من الظهور والجهر بمفاسدها خلال العصر الأموى ، فلما جاء العصر العباسى تمتعوا بالحرية المطلقة فكشفوا عن نواياهم الخبيثة للإسلام .

* * *